نظرات فى النفس والحياة

بقلم الدكتور / محمد رجب البيومى

قارئ ديوان الشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن شكرى يشعر بعمق شعوره، وقوة إحساسه، كما يلمس تغلغل نظره فيما حوله من الكائنات، وفيما يمور فى النفس الإنسانية من تيارات الرضا والسخط، والأمل والألم، ولكثرة ما عانى الرجل من تحليل النفس البشرية سمّاه الناقد الكبير الدكتور محمد مندور شاعر الاستبطان الذاتى، بمعنى أنه تعمق فى فهم السرائر واكتناه الأشياء تَعمُّقًا كشف له عن حقائق مجهولة، ما اهتدى إليها غير الآحاد من نوابغ الفكر الإنسانى فى الشرق والغرب، وإلى ما تمتّع به الشاعر الدارس البصير من رحابة الأفق، وبُعد النظر، قد تمتّع بموهبة القراءة المتصلة التى تشمل التيارات المتضاربة فى عوالم الفكر الممتد شرقًا وغربًا، فما انقطع يومًا عن مطالعة ما تخرجه المطابع من ثمار شهيّة، وإذا كان الشاعر انطوائيا عُرف بالعزلة النفسيّة عن الناس فى مجتمعه المصرى، فليست عزلتُه هذه بالعُزلة الصماء التى يسئمها الفراغ، ويملؤها الملل، ولكنها عزلة المفكر الفيلسوف الذى يخلو إلى خواطره تارة، وإلى كتبه الحافلة تارات، فهى عزلة كعزلة أبى العلاء المعرى فى محبسه، إذ فرغ للتأمل والتفكير، فالتأليف والنظم، وكان تلاميذه يفدون إليه فى محبسه ليقتطفوا أشهى الثمار من حديقته اليانعة، كذلك كان شكرى فى الإسكندرية أيام شبابه رائدَ ندوةٍ يتحلّق حوله بها أنصار التجديد، فيسمعون ما لا يعلمون، ويفاجئهم الشاعر بما لايعهدون من روائع الشرق والغرب، وإذا كان المفكر الكبير الأستاذ عباس

محمود العقاد عَلَمَ الأعلام فى مضمار الثقافة الشاملة ذات التعدّد المختلف، فقد قال عن زميله الشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن شكرى عقب رحيله:

«عرفت شكرى قبل خمس وأربعين سنة، فلم أعرف قبله ولا بعده أحدًا من شعرائنا وكتّابنا أوسع منه اطّلاعًا على أدب اللّغة العربية وأدب اللّغة الإنجليزية، وما يترجم إليها من اللغات الأخرى، ولا أذكر أنى حدثته عن كتاب قرأتُه، إلاّ وجدت منه علمًا به، وإحاطة بخير ما فيه، وكان يحدثنا أحيانًا عن كتب لم نلتفت إليها ـ ولا سيما كتب القصّة والتّاريخ، وقد كان مع سعة اطلاعة صادق الملاحظة ـ نافذ الفطنة ـ حسن التخيّل، سريع التمييز بين أنواع الكلام. فلا جرم أن تهيأت له ملكة النقد على أوفاها؛ لأنه يطّلع على الكثير ـ ويميز ما يستحسنه وما يأباه، فلا يكلفه نقد الأدب غير نظرة فى الصفحة والصفحات ـ يلقى بعدها الكتاب، وقد وزنه وزنًا لا يتأتى لغيره فى الجلسات الطوال»[1].

هذا بعض ما قاله البحاثة الكبير عباس محمود العقاد، وقد قلته فى التعقيب عليه من قبل[2]: «والعقاد من أكثر أدباء العربية اطلاعًا على الآثار الفكرية فى القديم والحديث، فإذا قال إن شكرى قد قرأ ما لم يقرأه العقاد، فما ظنك به؟».

وأقول الآن: إن العقاد ذكر أن زميله الكبير فى ريادة الأدب الحديث قد كان يخص كتب القصة والتاريخ باهتمامٍ خاص، وتعليل ذلك أن الرجل مولع باستقصاء أحوال النفس البشرية وملابساتها فى المجتمع الإنسانى، والنفس البشرية تجد تسجيلها الممتد فى صفحات التاريخ كما تجد تسجيلها الأوفى الأشمل فى القصص العالمى؛ لأنّ كاتب القصة الحقيقى لا يكتب ليمتع ويسلّى فقط، بل ليخوض أعماقًا مجهولة فى شعاب النفس الإنسانية ذات التيارات المتضاربة، والأهواء المتناقضة، وليبرز ألوان الاحتيال والغدر والعقوق والمكيدة متجاورة مع متناقضاتها من ألوان الصراحة والوفاء والبر والإخلاص؛ ليقف قارئه على دنيا من الغرائب، هى فى الوقت نفسه دنيا من الفواجع؛ لأن الشرّ فى الدنيا كثير

(١) الهلال، فبراير سنة ١٩٥٩.

(٢) دراسات فى الشعر العربى لشكرى، المقدمة ص ١٦.

كثير، وإذا وصفه الروائى العظيم بقلمه المصوّر فقد رسم لوحات دامية من الفواجع والمآسى، تتضاءل جوارها مباهج الفرح والسرور، وقد كتب الأستاذ شكرى بحوثًا جاوزت الثلاثين تحت عنوان (نظرات فى النفس والحياة) نشرها تباعًا فى مجلة المقتطف على مدى ستة أعوام. ولولا أن المرض المفاجئ قد عاقهُ فمنعه عن الكتابة لا القراءة لشلل أصابه، لامتدتْ هذه البحوث حتى بلغت الضعف أو ضعف الضعف؛ لأنّ سعة قراءته لم تقف عند حد، وإذا كان الباحث العظيم قد درسَ علم النفس فى مفتتح شبابه بدار المعلّمين العليا فى كتبه التربوية، ثم واصلَ دراسته فى بعثته إلى إنجلترا. وفيما وليهما بعد رجوعه إلى مصر. فلم يشأ أن يقتصر فى الإلمام بمسائل هذا العلم على ما دوّنه النظريّون فى كُتبِ علم النفس المليئة بالمصطلحات، والتقسيمات والتفريعات؛ لأنها وحدها لا تكفى فى الإحاطة بميول النفس الإنسانية، وكثير ممن اكتفَوْا بها قد وقفوا عن الترديد المتكرر، بحيث صارت كتبهم الجامعية أشبه بالمذكرات المدرسية، تنفع المبتدئ. ولا تفيد المنتهى، أما شكرى فقد امتد بنظره الثاقب إلى ما دوّنه أعلام القصّة والتاريخ فى أوربا ليجد فيما صوّروه من كوامن النفوس مددًا لا ينقطع فى تصوير الشجون المختلفة فى عالم النفس، وقد بدأ بحوثه المشبعة الممتعة بقوله[1]:

«إن علم النفس من العلوم الحديثة ـ ولكنّ وصف النفس الإنسانية ـ ومحاولة كشف مجاهلها ومخبّئاتها أمرٌ قديم عالجه الشعراء والكتّاب فى كل قوم، ولكن لعلهم لم يبلغوا من الصراحة مبلغ النظريات والنظرات التى بلغها سيجموند فرويد وأمثاله، وإن كان لكل مفكر نصيب وطابع خاص فى الصراحة، ولا نظن أن أديبًا أو مفكرًا أعفى النفس الإنسانية من تطلعه إلى غرائب أمورها، أو الأمور المألوفة التى هى فى منزلة الغرائب، لانزوائها فى ظلمات النسيان كلما رأت النفس فى ذلك النسيان مأربًا لها، ولكن نفعَها بتذكيرها هُو علمٌ وفهم، ولعلّ بعض ذوى الفهم والزكانة يرى فى فهم النفس فى نزعاتها وخواطرها سبيل

(١) مجلة المقتطف، أغسطس سنة ١٩٤٧ ص ١٨٥.

رُقيِّها، وتخلصها من أهوائها. . . . . ولكن مما لاريب فيه أن جهل النفس صفاتها وطبائعها هو العمى الروحانى، وهو مصدرُ شر في ذاته، بما يؤدى إليه من بلادة الطبع لدى الإنسان، والإمعان فى قسوته، والاسترسال فى حمقه».

ثم أتبع ذلك بتحليلٍ لبعض آراء المفكرين الثلاثة؛ لاروشفوكُولد، ليوباردى ـ شوبنهور ـ والذى يُراقب سير هذه البحوث الدسمة فى مجلة المقتطف، يجد الدارس جعل الفصول الثلاثة الأولى مشتركةً بين أكثر من عَلَم، ثم اتجه بعد ذلك إلى الحديث المستقل عن كل عَلَم بمفرده فى عدّة أبحاث، وهذا يدل على أن الخطّة لم تكنْ مرسومة لديه أول ما كتب، ولك أن تقولَ إنّه وجد البحث بعد الفصول الأولى لا يستقيم على وجهه الصحيح إلا إذا انفرد كلّ عَلَم ببحث مستقل، وقد هيأ له ذلك أن يتحدثَ عن كلّ كاتب حديثًا موجزا فى مطلع مقاله، وهو إيجازٌ مركز يعطى الفكرة الصائبة عن المتحدث عنه، سواءٌ كان مشتهرًا كجوته، وأناتول فرنس، وبلزاك، وهازلت، وبيكون، وجورج اليوت سويفت، وثاكرى، أم دونهم فى الشهرة مثل تشستر فيلد، وأرثر هيلس، وقد يظن أن الحديث الموجز عن القلم المشتهر أخفّ وأسهلُ من الحديث عن غيره، ولكنّ الواقع غير ذلك، لأنك مطالَب حين تتحدث عن عَلَم مشتهر، أن توجز أعماله فى أقلّ من صفحة، فتحتاج إلى براعة فى انتقاءِ ما يُقال بيْن مواقف وأحداث ومؤلفات تتطلب الدقة فى التمحيص، ومن هُنا كان الإيجاز أدلّ على الإعجاز، فى كتاب الله، وكان الإيجازُ عند ابن المقفع وأضرابه فنا من فنون القول لا يدركه غير الملهمين، ولكىْ نعطى القارئ فكرةً عن التعريف الموجز لَدى شكرى فإننا ننقلُ له ما قاله عن تشستر فيلد، وقد اخترته لأنه لا يَحْظَى بشهرةِ سواه، فالقارئُ متشوّق إلى خلاصةٍ دقيقة عنه قدّمها الأستاذ شكرى فى قوله[1]:

«لُورد تشستر فيلد من نُبلاء الإنجليز، وأهمّ مؤلفاته رسائلُه إلى ابنه، وقد ضمنها نصائحه التى اكتسَبها من خبرته فى مخالطة الناس، فقد شغلَ مناصب مختلفة، وعاشَر أناسًا كثيرين من طبقات مختلفة، إذْ كان أوّلاً عضوًا فى مجلس

(١) مجلة المتقطف ـ فبراير سنة ١٩٤٨ م ص ٩٧.

النواب، ثم فى مجلس اللوردات، ثمّ سفيرا فى هولاندة، ثم حاكمًا لإرلندة، ورسائلُه ذخرٌ مملوء خبرةً بالنفوس، وكنزٌ من تجارب الحياة، وقد أسَرف الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى فى ذمها، ولكنّه اعترفَ فى ثنايا ذمِّه بما فيها من فطنةٍ وخبرة، إذ قال: لو سُلَّ منها ما لا يجمل التخلق به لصلحتْ كى يقرأها كلّ فتى. وأوجه الاختلاف بينهما كثيرة، منها أن جُونسون كان ينمق الرسائل فى الأخلاق النظرية، ويحتذى مَا دَرسَه فى الكتب، وتشستر فيلد كان يسترسل فى وصف النفوس كما خبرها بأسلوب سهل موجز، حتى عُدّ آيةً فى بلاغة الإيجاز. ومنها أن جُونسون فى أيّام فقره تطلع إلى أن يمدّه النبيل الغنىّ بمعونة تعينه على نشرِ مصنفاته، فلم يفعل اللّورد، أو تباطأ، أو أهمله مدة، فأرسلَ له الدكتور جونسون رسالته التى كانت كصوت بوق يُؤذِن بعصْرٍ جديد، وباعتماد الأدباء على كسبهم بدل الاعتماد على معونة النبلاء».

هذه السطور الموجزة تعطى القارئ ما يريد من اللّباب عن حياة سياسىّ عملىّ يتعاطى التأليف ليسجل تجاربه لا ليعيد ما قاله الناس، كما تُشير إلى الخصومة التاريخية الذائعة بين تشسْتر فيلد وبين جونسون الأديب الإنجليزى الشهير، وتُعلّلُ سبت انتقاص جونسون لرسائل اللورد، وهو سببٌ شخصى لا أدبى؛ لأن مثل جونسون لا يفوتُه أن يعرف ما فى تسجيل الملاحظات النفسية الدقيقة من فائدة علمية ممتازة. وأذكر أنّ الدكتور محمد مهدى علام قد نقل رسالة جونسون اللاذعة إلى العربيّة، فأوضحت لنا ما يفتعل فى نفس كاتبها من غضبٍ يحولُ دون الإنصاف، وهو ما ألمع إليه الأستاذ شكرى فى لمح خاطف يقنع دون استطراد. وفيما اختاره شكرى من رسائل تشسْتر ما يحدّد موقعه فى عالم الفكر ويجعل له مكانه المستريح بين المؤلفين.

وقد اختلفت حظوظُ المتحدث عنهم فى هذه المقالات، فحينَ نرى جوته - قد اختص بسبع مقالات - وهو جديرٌ بها دون شك - نرى أناتول فرانس قد اختص بثلاث مقالات، وأكثر المتحدث عنهم قد اكْتُفى بمقالتيْن لكل منهم، أما الذى عجبتُ له فاقتصار شكرى على مقالٍ واحد خاصٍّ بالكاتب اللاّمع والناقد البارع

«هازلت»؛ ومَوْضعُ العجب أنّ (هازلت) كانَ ذا أثرٍ كبير فى اتجاه مدرسة الديوان النقدى، كما تحدثَ المازنى عنْ ذلك فى مرات كثيرة، وشكرى أحد أعلام هذه المدرسة كان المنتظر منه أن يُفيضَ فى تحليل آرائه النفسية والاجتماعية على نحوٍ أوسع، وأذكرُ أنى ناقشت تلميذ الأستاذ شكرى، وهو صديقى الأستاذ نقولا يوسف فى هذه الخاطرة، فقالَ لى: لقد لاحظتُ ذلك. ولكنّ مقالة شكرى عن هازلت تغنى عن كتاب برأسه، إذ هى ذات عناصر تتيح لكاتبٍ ما أن يجَعل من كلّ عنصرٍ بابًا مستقلا فى كتابٍ منفرد، فكأنّ شكرى قد قدم له المفتاح ليسهل الولوج به إلى معقل حصين.

الذى يتابع اقتباسات شكرى عن هؤلاء الأعلام، يجدها تتسلسل فى أرْقام متتابعة، وكان الظن به أن يجعل الموضوعَ ذا نسيج متصل متماسك ـ وهوَ قديرٌ على ذلك ـ بل إنه كتبَ من قبل عن الخواطر النفسية الشائعة مقالات نفيسة فى مجلة الرسالة، كان حظها من التماسك والالتحام والتدفع والاستقصاء حظا كبيرا[1]، فلماذا اختار هذا الاقتضابَ العائق دون الاسترسال؟ يخيلُ إلىّ أنّ الأستاذ قَبل أنْ يشرع فى كتابة هذه الفصول كانَ يكتبُ عن كل مفكر من هؤلاء العظام شذراتٍ يختارها لقراءته الخاصة، ثم وجدَها من الدّسامة والقوة بحيث تُقَدِّمُ زادًا طيبًا لمن يريد دراسة النفس البشرية فى مجتمعها الزاخر، فآثر أن يُقدّم هذه المختارات كما جمَعهما من قبل، وهو فى كثير من أحواله يشفعها بالتعقيب، واضعًا خطا أفقيًا قصيرا (ـ) بيْن تعقيبه ورأى المتحدث عنه، وقد يغفُل هذا الحاجز الصغير، فيختلط كلامُه بكلام من يتحدث عنه، ولا يُدرك ذلك إلا قارئٌ تمرّس بأفكار شكرى فى كلّ ما كتب، وعَرفَ نمطه النقدى، ومَشْربه النفسى، وليسَ اختيار الفقرات من قبل عملاً مستبعدا، فقد حَدَّثَنا الأديب الكبير محمد المويلحى فى مقدّمة كتابه الذائع (علاج النفس) أنّه كتبَ خلاصاته الأولى لنفسه كى يسترشد بها فى أزمات الحياة، ثم رأى أن يشرك قارئه معه، فبادر إلى جمعهما فى كتاب واحد بعدَ أن أعطاهَا نسق التأليف والتبويب.

---

(١) ستظهر هذه المقالات، وأضرابها فى كتاب خاص، أقدمه للقارئ تحت عنوان (جولات فكرية)، ولم أشأ أن أقحمها على بحوث هؤلاء الأعلام لأحفظ لها استقلالها المتميّز.

لمعرفة طريقة ـ شكرى فى السرد والتعقيب، نختارُ شخصيتين. نخصّهما ببعض التحليل: إحداهما ممن خصها الكاتب بفصْل واحد، وثانيتهما ممّن أسهب فى عرض آرائها، وإذا كنّا قد ألمعنا إلى ترجمة تشستر فيلد التى افتتح بها شكرى مقالَه عنه، فسنمضى فى حديثه طلبًا للاختصار، لنرى شكرى يبتدئ مختاراته بقول الكاتب الإنجليزى «بعض الناس يمدح نفسه بصيغة الذم فيكسو الفضائل لباسَ النقيصة والعيب، ثم ينتقص نفسه بتلك الفضائل ـ ويعيبها بتلك المحامد التى كساها كساء الْعيب، كى يجعلَ مدح نفسه سائغًا لدى الناس، فيقول مثلا: من عيوبى الّتى لا أستطيع أنْ أغالبها، أنى أقول الحق فى غير موضعه، وآتى بالصدق فى غير مكانه. أو يقول: من عيوبى أنى ما رأيت إنسانًا مصابًا إلا وَددت أن أشاركه فى مصابه، كأنى أحمل الدنيا، أو كأنى موكل بها، ولا تزال بى تلك الوِدادة حتى أقاسمه المصاب ـ وأشاطره وأُعينه على ما حَل به، وأهيئ له من أمره ترفيها ورشدا. أو يقول: من نقائصى المذمومة أنّى كلما رأيت مظلوما نصرتُه، وإن كانَ فى نصره ضررٌ لى، والعاقل حقيق بالانصراف عن هذه الوسيلة التى توهمه أنها تحملُ الناس على اغتفارهم له مدح نفسه، وهى لاتحملهم على الاغتفار، بل تزيد الناس سخريةً به، وإزراء عليه[1]».

هذا ما التفتَ إليه اللورد، وهو ما نشهده ونسمعه كثيرا فى مجالسنا؛ لأنّ النفوس هى النفوس شرقًا وغربًا، وقد علّقَ شكرى على ذلك بقوله: «... ومن الناس يتخذ لنفسه شعارًا فى أمرٍ من الأمور، ويوهم الناس أنه وحده كفيلٌ به، ولا شريك له، ويردده فى كل فرصة حتى يملّ الناس أمره، ولا تنفعه طلاقته ولا أنّه ذَرِبُ اللسان ذلقه، وللناس افتنانٌ فى هذه الأساليب المتغايرة، وفى الحالتين المذكورتين نرى المدحَ المراد للنفس مَدْحًا لم يقصده صاحبه إلا بطريقة ملتوية، ولكنها حيلة مكشوفة».

وشكرى لم يعقّب على الحالة بما يفسّرها، بل بما يشابهها فى عالم المدح المموّه،

(١) مجلة المقتطف ـ فبراير ١٩٤٨ ص ٩٨.

وكنتُ أوثر أن يشير إلى أن الحالة الأولى معروفة فى الأدب العربى، وقد سمّاها البديعيّون المدحَ بما يشبه الذم، واستشهدوا لها بأبيات كثيرة منها قول النابغة:

ولاعيبَ فيهم غير أن سيوفهم بِهِنَّ فلول من قراع الكتائب

وكلام النابغة هنا محتمل، لأنه لا يمدح نفسه، بل يمدح سواه، واختار أن يفاجئ السامع بهذه الطريقة تفننا فى الابتكار الشعرى فحسب.

وينقل شكرى قول الكاتب: «إذا أكثر رجلٌ من القسم، ولجّ فى الحلف كى يحملكَ على أنْ تصدقه وكى يقنعك بحلفه فى أمر لا يستدعى تصديقه كلَّ هذا الحلف، فهو فى أكثر الأحايين كاذبٌ فيما يقول ـ وإلا ما تكلف جهد الحلف ـ كى يخفيَ به كذبه ـ وكى يداوِيَ شكه فى تصديقك كلامه، وكى يعالج خوفه من رفضك قوله[1]».

وقد قال شكرى فى مجال التعقيب: «وهذا يذكّرنى قصّةَ رجل من أهل المدينة، كان يقول للناس: أنا والله من قريش والحُمد للّه، فقال له سامعه: الحلفُ والتحميد هنا أمران مُريبان، أى يدعُوان إلى الشك والريبة فى صدقه، على أنّ الرجل قد يكونُ صادقا فى كلمته ـ وإنما يعالج بالحلف اشتهاره لدى نفسه ولدى الناس بالكذب فى أمورٍ أخرى غيرها. وقد يكون الحلف عادةً عُوّدها. ولكنها توقفه موقفَ الرجل الظّنين المتهم فى صدقه».

وشكرى هنا يلفت إلى حالة خفيّة هى شعور الحالف بأنّ النّاس يكذّبونه فى أمورٍ أخرى غير ما حلف عليه الآن، فيحلف على الأمر البدهى هنا؛ ليكونَ فى وهمِ الناس مصدقا فيما كذب فيه:

ومما اتسع شكرى فى التعليق عليه نسبيا ما ذكره الكاتب حين قال[2] «كثيرٌ من الناس يكرهون أن يتسموا بالحماقة والغباء، أو السخف، أو الحقارة، أو ما شابه ذلك من أوجه النقص والعيب، أكثر من كرههم أن يتهموا بالآثام والخطايا والجرائم والشر».

وهذا واضح فيما نشاهد، بل إننا كثيرا ما نرى المجرم العريق يفتخر بإجرامه

(١) مجلة المقتطيف ـ فبراير ١٩٤٨ ص ٩٨.
(٢) مجلة المتقطف ـ فبراير ١٩٤٨ ص ٩٨.

وكأنه أكبر الفضائل، ثم ينكر أنه قليل الفهم ولا يصبر على هذا الوصف، إذ يعدّه من فظائع التهم «وقد سكت الكاتب عن تعليل هذا السلوك النفسى، ولكن شكرى فطن إليه حين عقب بقوله[1]:

«إن الرجل يكره ما يلحق به من الاحتقار، أكثرمن كرهه ما يُلصق به من خوف الناس منه؛ لأنه يعرف أن الناس قد يعجبون بالشرّ والخطايا، فيزيد صاحبهما عظما وقدرا فى نفوسهم، ولكن الناس لا يستعظمون السّخف، ولايجلّون الحماقة والغباء، ولا يفخرون بهذه الصفات التى تزيد صاحبها احتقارا فى نظرهم، فلا يستهين العاقل بنسبتها إلى الناس اعتمادا على أنه إن لم يجعلهم من الأشرار، ولم يقل إنهم من المجرمين فقد نَسب إليهم ما هو أقبح فى نظرهم وأكثر للذم مجلبة، على أنك ترى ساذجا ينسبها إلى صديق، فإذا غضب صديقه دُهشَ، وقال: أنا لم أقلْ إنه مجرم شرّير، ولم أقلْ إلا أنه سخيف» وقد يُكون هذا التعقيب فى حاجة إلى البسط أكثر، ولكن شكرى أوجز.

ويقول الكاتب: «إذا كان لك فضل فليس السبيل إلى اعتراف العقلاء المبصرين، أن تكيد الناس بمباهاتهم به فى الأحاديث والمجالس، بأن تظهر لهم أنك تعرف من فضلك أكثر مما يعرفون، فإن الناس قلما يغتفرون لك ذلك، ويعدّون فضلك إساءةً إليهم، وإن اعترفوا به سرا أوجهرًا، وهم يحاولون انتزاع اليقين به، والثقة من نفسك بأساليب مختلفة، ولكنك قد تحملهم بالملاطفة وسياسة التأنى وأساليبها على اغتفار الفضل لك[2]».

وقد عقّب شكرى على ذلك فقال: «وكذلك إذا كان لك فضلٌ على إنسان بأن صفحتَ عن ذنب له، أو إساءة أو زَلّة، أو كنت قد انتشلْته من سقطة كادَ يتردى فيها وأزرَتْ به، فليكنْ همك أن تُنسيه فضلك عليه، واطلاعَك علَى سيئاته، وموضع النقص منه، فإن كثيرا من الناس يحقدون على من اطّلع على زلاتهم ونقائصهم، وإنْ كان اطّلاعه عليها من ناحية انتشاله إياهم من وهدة زلتهم، ومعونته لهم، وإنقاذهم من عواقبها، فإنّ تلك المعونة وذلك الإنقاذ

(١) مجلة المقتطف ـ فبراير ١٩٤٨ ص ٩٩.
(٢) المقتطف (العدد نفسه) ص ١٠١.

لايشفعان لاغتفارهم اطلاعك على نقصهم، وفضلُك فى ذلك لا يشفع لك، بل يزيدُ حزازةَ حقد من تفضلت عليه، إلاّ إذا كانت لكَ لباقة نفسية تُنسيه فضلك عليه، واطلاعكَ على نقصه، وقد يكونُ مثلهم مثل المرأة التى لطمتْ سائق الترام، الذى رآها قد زلّت قدمها، وكادت تسقط تحت الترام، فجذبها إلى نفسه وأنقذها من الموت[1]».

ولى تعليقٌ على ما تقدّم، هو أنّ الرجلَيْن الكبيرَيْن، البادئ والمعقب، يَحْكُمُون على الناس جميعا، وكأنهم من ضربٍ واحد لا يتغير، فنحن نشهدُ مَن يعترفون بالجميل إلى صاحبه، ولا يؤذيهم ذلكٌ فى شىء بل نشهد من يُكرّر هذا الاعتراف حتى يكون مبعث سأم، وقضية «اتق شر من أحسنت إليه» إذا صدقتْ على قوم، فإنها لا تصدقُ على الناس جميعا وللاعتراف بالجميل فى الأدب العربى قصائد مشتهرة، وقد يقال إنهّا مجلبة لصيد آخر، وهذا محتمل، ولكنه لاينطبقُ على جميع الحالات.

أما (جُوتَه) فقد خصّهُ شكرى بأكثر من أربعين صفحة من صفحات المقتطف الدقيقة، واهتمامهُ به يدلِ على صلة وثيقة بآرائه وأفكاره، وقد تحدث شكرى عنه فى مطلع كلّ بحثٍ من بحوثه السّبعة بحيث لو جُمعت هذه المطالع فى مقالة منفردة لقدّمت ترجمة دقيقة موجزة. وقد قال فى بحثه الأول عن الشاعر الكبير: إنه اشتهر بيننا ـ يريدُ فى مصر ـ بأقلّ مؤلفاته منزلةً عند النّقاد، تلك هى رواية (أحزان ورتر) التى ترجَمها الكاتب البليغ الأستاذ أحمد حسن الزيات بعنوان (آلام فرتر)، ولا أدرى لماذا أجد فى نفسى بعض الجرأة على مخالفة الأستاذ فى حكمه، إذ أنّ رواية «آلام فرتر» قد رنّ صداها فى الشرق والغرب على نحو مبهر، والذين انتقصُوها قد قارنُوا بينها وبين قصّة «فاوست»، فرأَوْا فى الأخيرة ما يُمتع الشيخ الحكيم، حين رأوْا فى الأولى ما يبهر الشابَ المتطلع ذا الشعور الجيّاش. وقد قرأت القصّة مرات عديدة فوجدتُ سيْلاً من الأحاسيس الدافقة، والمشاعر الصادقة لا يُسَطِّرُهُ إلا كاتب موهوب، وإذا كنتُ واهمًا فى ذلك فإنَّ الناقد الإنجليزى الكبير «إدوارد شانكس» قد كَتبَ عنها فصلا بديعا قال فيه[2]:

---

(١) المتطف (العدد نفسه) ص ١٠١.

(٢) مجلة الرسالة ـ العدد ٣٤٢ ـ ٢٢ / ١ / ١٩٤٠ ترجمة الأستاذ أحمد فتحى.

«قد استطاعت «آلام فرتر» أن تتخطى الحدود إلى سائر بلاد الأرْض، وأن تغزو أفكار الشباب حيثما وقعتْ فى أيديهم بما تحملُ من صور العبقرية الفذّة، وإنّ الكثيرين من هؤلاء قد رسمَ خيالُهم صورة «فرتر» كإنسانٍ نبيل القلب، غنىّ العاطفة، حىّ الإنسانية، لفظته الحياةُ فآثر عليها الموت. . . . وإنّ آلام فرتر من الكُتب التى يتعذّر إهمالُ الحديث عنها، فقد نظم جوته فيه أحسنَ الشّعر الذى لم يُنظم بعده ولا قبله مثيلٌ له أو خيرٌ منه، بل إنّ هذا الشعر ليبز ببساطته ووضوح تعبيره كلّ ما عداه من شعرِ الألمان جميعا إلى اليوم».

وأكبر الظن أنّ جوته قد ساعد على خفضِ قيمة آلام فرتر، حين فُتن بقصة «فاوست» وأخذ يشيد بها وحدها، لأن مرور الأيام جعله ينسى بطلةَ القصة «شرلوت» التى احترق بحبّها فى شبابه، وقد جاءتْه فى كهولتها الغاربة وهو وزيرٌ عند الدوق «كارل أوجست» تطلبُ معونته فى أمرٍ غير جلل، فما احتفل بلقائها، بل عَجَّلَ برحليها بعد أنْ حقّقَ رجاءها على نحو متسرع؛ ليتخلّص من وجودها، وهى مأساةٌ مريرةٌ تذكرنا بقول المتنبى:

لو فكّر العاشق فى منتهى حُسْن الذى يسبْيه لم يسْبهِ

أما نظراتُ جوته فى النفس والحياة، فقد أشبعَ شكرى قارئه بما قدم له فى هذا المجال من آراء ذات عُمق بصير، وبعضُ هذه الآراء قد صادفت ارتياحَ شكرى فلمْ يشفعها بتعقيب ناقد؛ لأنّه لا يتكلف النقد لذات النقد ـ بلْ يتطرق إليه إذا صادف موضعه الواضح دون تمحل متكلف، وهذا شأنهُ أيضًا مع غير جوته من أعلام الفكر؛ لأنّ نظرة الإعجاب لديْه هى التى دفعته أولا إلى اختيار ما قالوه، وإلى اختصاصهم بحديثه، وقد ألفنا نفرًا من الكاتبين لا يُخلونَ رأيًا من نقد، وكأنّهم يريدون أن يقولُوا للقارئ إنّهم فوق من يتحدثون عنه سعةَ إدراك، ونفاذَ بصيرة، وما دروا أنّهم بهذا التهجم الملح إنما يكشفون عن منحًى ضعيف يؤخذ عليهم، ويقفُ حائلاً دون ما أرادوُه من إظهار الحصافة الدقيقة، مع أنّ الحصافة الدقيقة هى فى الإنصاف العادل، لا فى التكلّف البعيد، وها هى تى بعضُ نظرات جوته التى اختارها شكرى وشفعها بالتعقيب:

١ ـ يقول جوته[١]: «إن النفس تُحوّل موضع ضعفها ونقصها إلى مَبْدأ عام ممدوح، ومثال ذلك أنّ بعض الناس يظنّون أن التأنى الذى سبّبه الخوفُ الكامن دليل تعقّل وتؤدة، فهو قوةٌ لا يغلبها غالب مع أنّ هذا الإحجامَ قد لا يكون تبصّرا وحزمًا، وكذلكَ نرَى الضعفاء حين يعتنقون المذاهب الثورية يظنّون أنفسهم سُعداء باعتناقها، ولا يفطنونَ إلى أنّ ضعفهم هو الذى يمنعهم من حكم أنفسهم».

فيزيد شكرى على هذا القول قوله[٢]: «وكما أنّ القاعدةَ أنّ النفس تزين موضعَ ضعفها، فهى أيضا تقبح ما لا تستطيع الوصول إليه من الصفات، فإنّ مَنْ لايُساعده طبعه على التخلق بآداب السّلوك، يراها موضعَ ضعف ومذلة ونقص، وقد يمدح المرءُ ما لا يتخلّق به فى بعض الأحيان إذا كانَ له مأربٌ خاص فى هذا المدح يَجْنى من ورائه كسبا، أو ليظن الناس أنه يمدح هذه الصفة لأنها من صفاته هو التى يتسم بها».

٢ ـ من شجاعة جُوته النفسيّة أنّه قال: «أنظر فى نفوسِ الناس ثم أنظر فى نفسى فلا أجد خطأ من أخطائهم كانَ من المحال أن أرتكبه، وادعاءُ العصمة والترفّع أمرٌ ميسور لا يكلّف صاحب الادعاء مشقّة».

وقد قال شكرى مُحبذا هذه الشجاعة المنصفة: «إن بعض الناس يلومون جوته على هذا الاعتراف المدوَّن فى كتابه «بين الحقيقة والخيال» كما يلومونه على أقوال أُخرى من هذا الطراز، ولكنّ الكاتب الإنجليزى الكبير سمرست موام قد زكّى هذه الشجاعة وأعجب بها» وشكرى كثير الاستشهاد بسمرست موام، وكأنه يستريح إلى آرائه، ولهُ فكره المستقل، ولكن لا أدرى لماذا أميلُ إلى غير هذا الارتياح بعد ما قرأت للأستاذ العقاد ما فحواه أن هذا الكاتب يتعرّض لنقائص النفس الإنسانية لا ليرثى لها، أو عَلى الأقل ليضع لها العلاج الشافى فى عطف ومودة كما هو شأن الكبار من ذوى النفوس العالية، ولكنّه يتعرض لهذه النقائص متشفّيًا متهكمًا مسرورًا؛ ليرضى بعض نوازع الأنانية فى نفسه، وما قرأت من

(١) المقتطف ـ يونيو سنة ١٩٤٩ ص ٢٦.
(٢) المقتطف ـ يونيو سنة ١٩٤٩ ص ٢٧.

قصص سمرست موام يؤيّد وجهة الأستاذ العقاد. وكمْ شعرْت بالضيق حين أجد فى قصصه رجلا نبيلا طيبا يلقى أسوأ المصير بدون جريرة، وقد يكون ذلك تصويرًا لواقع كائن لمسه الكاتب فعبر عنه ـ ولكنّ الإلحاح على القسوة المفرطة دون موجب يشى بتحجر فى العواطف، ذى صلابة صخرية، لا رحمة فيها. وكمْ كان يهمنى أن أوازن بين نظرات متقابلةَ للكاتبينْ العظيمينْ شكرى والعقاد، لينعم القارئ باتساع النظر الإنسانى لأكثر من اتجاه، ولكنّ المقام هنا يضيق عن الاستطراد المفيد..

أتابع بعض آراء جوته التى خصّها الأستاذ شكرى بالتّعقيب، فأنقل قوله[1]:

٣ ـ «إنّ صفات النفس تظهر فى العمل والاحتكاك، ولا تقفُ عند الأفكار وحدها، ومن هنا يُخطئ مَن يظن أنّه يستطيع أن يعرف صفاتِ المرء من مُطالعةِ فكره وحده دون شمولٍ فى النظرة يتسع إلى تطبيق الأفعال على الأقوال».

وأنقل بعده قول شكرى معقبًا: «والواقعُ أنّ النفس تُحاول أن تفصل عَمْدًا بيْن الأمريْن، وهذا الفصلُ قاعدةٌ سيكولوجية فيها؛ لأنها تعرفُ أنّ العمل قد يُغْريها بالتخلق بصفات ذميمة ما كان يتخلّق بها المرء، لولا اضطرارُه إلى العمل والمعاملات، وقد شبَّه جُوته نوعَى الصفات بالسُّدى واللُّحمة فى النسيج، وبالزفير والشّهيق فى تنفّس الإنسان الحى، إذ لا يستطاع معرفة قيمة النسيج إلاّ منهما معا، ومن أجلِ ذلك يغيظُ المرءَ أن نُذكّره بصفاته التى تظهر فى أعماله حين يراها مناقضة لما يقول».

ولا أجد مانعًا من أن أقول شيئًا، هو أنَّ بعض النفوس العالية تلتزمُ التقيّد بآرائها فى محيط العمل، فكمْ رأينا أفرادًا يُضحُّون بمغريات كثيرة؛ لتُطابق أقوالهم أفعالهم، وفى هؤلاء عزاءٌ للنفس الإنسانية، ولا يلزمُ أن تكونُ هذه التضحيةُ من خصائص ذوى الثقافة الرفيعة؛ لأنّنا نشهدُ نظائرها لدى السُّذّج الطيّبين ممن اتبعوا وحى الفطرة الصافية، وكان الدّين عاصما لهم من السقوط الخادع جريًا وراء السراب.

---

(١) المقتطف ـ يونيو سنة ١٩٤٩ ص ٢٧.

٤ ـ يقول جوته صريحًا[1]: «ينبغى أن يتذكرَ المرء أنَّ فى نفس كلّ إنسان خواطرَ لوْ عبّر عنها صراحة لسببّتِ استياءً واستهجانا، والتعبيرُ عنها حينئذ إما أن يكون من العجز عن ضبط النفس، أو من قلّة التمييز بين ما يليق وما لاً يليق، أو التعود على الانسياقِ فى شرحِ خطرات النفوس، كما يفعلُ الشعراء والكتّاب، أو العدوى فى البيئات المثقفة التى يدعو فيها استرسال إنسان فى هذا الأمر إلى أن يُتابعه غيره فى هذا الاسترسال».

أماّ تعقيبُ شكرى فقد كان تذكيرًا بقصّة تمثيلية من تأليف يوجين أونيل الأمريكى، يتحدّث فيها كلّ أناس القصّة بقولَيْن مختلفين، قول لا يضرّ سماعه، وقول آخر يؤذِى ويؤلم، فنشجع إنسانًا يظهرُ المودة لصاحبه فى القوْل الأول، ثم يعقبه بصوتٍ خافت منخفض هُو حديثُ نفسه الذى يتناقض مع ما قال سابقًا.

يقول شكرى بعد ذلك: ومِن هذا حديث جوته عمّا كان يجول بخاطره من أنَّ أمّه حملتْ به سفاحًا من أمير جليل الشأن، ولم يكنْ جُوته عاجزًا عن ضبط نفسه. وإنما آثر هوان نفسه، ووخزها كى يعظ الناس ويعطيهم درسًا كما فعل جان جاك روسو فى بعض اعترافاته».

أقولُ: فى نفسى أشياء من قولِ جوته هذا ولا ينفعه تبرير شكرى، وأظنُّ احترام الأمّ أهم منْ أنْ نسجّل كل هاجس مريض لم تقم الأدلة على وجوده، وفى يقينى أنّ جوته سطرَ هذا الوهم فى ساعة ذهول من تأثير شراب عصف بحكمته! وقد قال شكرى فى تعقيبه بعد: إن الكاتب «بورن» اتخذ من اعتراف جوته هذا دليلاً على العقوق الفاضح وفقدان الإحساس بالكرامة والتملق للأمراء، وهذا ما أميل إليه.

فإذا تركنا هذا الإلمام الموجز بما قيل عن تشستر فيلد وجوته إلى بعضِ النظرات النفسية فى المعانى الأخلاقية، فإننا نجد (نظرات فى النفس والحياة) كتابًا أخلاقيا نادرًا، ولئن اهتم بتصوير الرذائل أكثر مما اهتم بتصوير الفضائل، فذلك لا ينقص

(١) المقتطف ـ مايو سنة ١٩٥٠ ص ٣٢٩.

من قيمته العلمية؛ لأنّ الحذر فى مسائل الخُلُق مُقدّم على غيره، لاستجابة النفوس تلقائيًا إلى نزعات الهبوط بتأثير الغرائز الجامحة، وشكرى يكتبُ عن أدباء عالجوا سيئات النفس البشرية أكثر مما عالجوا حسناتها، فليس عليه أن يغفل ما قالوه، وهو كثير كثير، فظاهرة الكذب مثلاً ظاهرةٌ مشهودة فى المجتمع الإنسانى، وقد عالجها الأدباء فى قصصهم واعترافاتهم، ورسائلهم، ومن أَذْكَى من تعرّض لها فيمن اختارهم شكرى هو الأديب الفرنسى الشهير (ميشيل مونتانى) إذ[1] نّص على أنّ الإنسان يتعلّم المنطق ليخالف به أصول المنطق الحقّ. وهو كالذى يتعلم القوانين كى لا يتقيد بها، ولكن لينجو من القصاص إذا وقع فى مخالفة، فالمنطق إذن وسيلته لتلبيس الحقّ على الناس، كما أنّ الكذب ليس صفة مقصورةً على الأراذل والأوْغاد، بل صفة شاملة، لأننا نجد كثيرا من الأخيار (كذا) الذين لا نجدُ فيهم عيبًا آخر لا يتورّعون عن الكذب إما عمدًا أو مُغالطةً للنفس، وبعضُ الناس قد تَعَوَّدَ الكذب حتى لا يستطيع أن يَصْدُق، وقد ينجيه الصدقُ من الضرر، ولكنّه يكذب تَعَوُّدًا، وهذا من غرائب العادة، حين تتحكمُ فتوهم صاحبها بأنّ الكذب هو الذى ينجيه كما نجا به فى حالات أخرى.

ومن عجائب الكذب ما التفتَ إليه (وليام ثاكرى) حين قال[2]: إن الكذب الذى يقوله المرء فى اغتياب الناس أكثر ذيوعًا من الصدق الذى يمدحهم به، فهل ذلك من أجل أنّ قلوب الناس تُربةٌ حجريّة لا تنمو فيها بذور الصدق فى قول الخير، إذْ ما من شكّ فى أنّ اغتياب الناس وذمّهم يصادفان من الانشراح والإقبال والإنياس والاشتهاء أكثر مما يصادفه مدحهم بالخير، كأنك فى الحالة الأولى تطعيهم بتوابل تدعو النفس إلى أكل لحومهم.

كما ذكر شكرى فى نظرات السير «آرثر هلبس» قوله[3] بصدد الكذب« يقولون إنّ الكذب لا يصدق ولا يقبل؛ لأنه لا أساس له ولا قوة فيه، ولكنْ لكل كذبة وقتٌ وميعاد وهوى فى النفوس، ولا يمنعُ من تصديقها أنها لا أساس لها، وقد

(١) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٨، ص ١٧٧ وما قبلها.
(٢) المقتطف ـ يوليو سنة ١٩٥٠، ص ١١٩.
(٣) المقتطف ـ مارس سنة ١٩٥١ ص ٢٥٠.

تكون لها قوة شر كبيرة مستمدة مِنْ قوةِ من يؤمن بها، وهذا كما قال شكرى يذكر بقول (ثاكرى) إن الكذب قد يكون أصغر من النقطة، ولكنّه مع ذلك كالنقطة السائرة التى تحتلّ مكانًا كبيرًا، وترسم خطا طويلاً».

وقد كدت أعقب فأقول: إنّ الكذب قد يطغى ويعمّ حتى يُصَدَّق، ولكنّ الزمن كفيل بفضحه، ونحن قد شاهدنا فى عصرنا هذا صحافةً تنشر الكذب وتؤكّده كل يوم على مدى ربع قرن، حتى نشأ جيل يؤمن به، وكأنّه حق صريح، ثم أشرقت شمس الحقيقة فضاعتْ أباطيلُ قومٍ تَبَوَّءُوا مناصبهم اللامعة بما اقترفوه من الكذب، وصدق قول الله: «فأما الزبد فيذهب جفاءً» كما تحقق قول الشاعر:

وعهودهم بالرمل قد نقضت وكذاك ما يُبْنَى على الرمل

وندع حديث الكذب إلى حديث الصداقة؛ لأن تجاريب شكرى مع أصْدقائه قد أورثته مرارة مُحرقة؛ إذْ شاءت ظروفه أن يصطدم بزملاء فكره، وأصفياء مشاعره، بعد مودة ذاق منها أعذب الأفاويق، وكان شكرى منصفًا فى خصامه، فهو لم يلق باللاّئمة على من قاسموه الخلاف، وبسطوا حبل النقد الجائر وحدهم، بل لام نفسه لأنه مهد العداء بما سَبَق به من نقد، وله فى هذا الموضوع قصيدةٌ قال عنها الأستاذ عباس محمود العقاد: إنها أحسنُ ما قيل فى بابها فى دواوين الشعر العربى أجمعه، ويتجلى هذا الإنصاف فى قول شكرى عن صديقه المازنى:

ولا أكذبنَّ الناسَ قلبى كقلبه له آنة ميْلٌ عن النصفِ والقصد
كلانا جَنى شرا فعاد إخاؤنا محالاً، حكى ذكر الشباب على بعد
إذا أنا أُنسيتُ الإساءة من أخ ذكرتُ له منّى إساءةَ ذى عمد
وأيقنتُ لا يَنْسى عدائى وما جَنى عدائى عليه من عناءٍ ومن جهد
أيلتئم الصّخران فى اليمّ بعد ما ترددَّ موجٌ اليم بالصّدع والهدِّ

وأديب يحمل هذا الإحساس المتقد نحو نوازع الحب والبغض لا بدّ أن يقفَ طويلاً عند العلاقات البارزة فى معاملات الأصدقاء، مما دوّنه كبار المفكرين فى

كُتبهم الذائعة ـ ولا بّد أن يطرب لما يجد من تحليلهم لأخفى التوازع الدفينة فى هذه العلاقات. فيختار (للاروشفوكولد)[1] قوله: «إذا أسفْنا لِنَبْوَةِ مَن نبَاَ عنا، فإننّا قلما نأسف لافتقاد المتعة بعقله وأدبه، بلْ كثيرًا ما نأسَف لأننا فقدنا بفقدْه رَمْزًا يدلّ على ثقةِ بعضِ الناس بنا، وحَسنِ رأيْهم في عشرتنا ورغبتهم فى أنْ يكونوا معنا، فنعتزّ بالأصدقاء فى أعيْن الناس ونزيدُيهمْ قدرًا وجاها، إذ أنَّ الأسف لنبوة الصديق أساسه الأثرة وحب النفس».

وشكرى العميق لا يترك هذا الكلام مرسلاً، بل يقيده بقوله معقبًا عليه: ولكنّ هذا الأساس لا يمنع من أنْ تكونَ الفضيلة فضيلة. فكثيرًا ما يختلط الإيثار بالأثرة فى النفس، حتى عُدَّ مظهرًا من مظاهرها. إذ أنّ النفس تنشد فى الإيثار شيئًا يرضيها ويريحها، بالرّغم مما تتكلفه بسببه، وما يُرضيها ويُريحها يكون منفعةً لها، وإن كان مطلبًا نبيلاً.

أماّ أصدق النظرات المستترة التى تتطلب جلاءً من مفكر بصير فقد اهتدى إليها لارشفوكولد أيضا، وحَرص شكرى على تسجيلها حين نقل عنه قوله[2]:

«مِن السهل أن يغتفَر المرءُ لأصدقائه العيوبَ التى يَرى أنهّا لا تضرّه، ولاتُصيبه بسوءٍ، وإنْ أصابت غيره من الناس، وهذا الغفران يكونُ ما دامَ المرء ناظرًا إلى أصدقائه بعين الرضا، وكثيرًا ما يغتفر لهم خيانتَهم أصدقاءَهم مادام الغافرُ بعيدًا عن خيانتهم لأنّه بزعمه عندهم فى منزلهٍ أعز وأرفع».

ويزيد شكرى هذا القول جلاءً إذ يعقّب عليه بقوله[3]: وقد يسخرُ ويضْحك من المغدورِ به ويلتمس العذر لمن غدر به، أما إذا حاق به الغدْر دونَه بعد اطمئنان للوفاء واستنامة إلى عزه ومنعته فإنّه لا يصفح للغادر كما فَعلَ قديما، بل يسخط عليه أشد السخط، ومصاحبة الشرير على خطره إنما تكون لأسباب متعدّدة، فبعض الناس يلازمه كىْ يعرف شرَّه ونيّتَه وما يبيّتُ فيتجنّب بذلك ما يتوقّع من شره، وبعضهم يلازمه ويجاريه تزلّفًا إليه، واتقاءً لشره، بالتزلف والتقرب،

(١) المقتطف ـ ديسمبر سنة ١٩٤٧ ص ٣٦٧.
(٢) المقتطف ـ يناير سنة ١٩٤٨ ص ٣٨.
(٣) المقتطف ـ يناير سنة ١٩٤٨، ص ٣٨.

وبعضهم يتابعه كى ينتفعَ بشره، وبعضُهم يزاملُه لأنّه يتمنى لنفسه فى سريرته جرأةً على الشرّ ليست له، فمُزاملتهُ له إعجابٌ مستتر، وهى لا تمنعُ أن ينقلب عليه إذا انقلب الناس».

وفى استطراد شكرى إضافةٌ جديدة؛ لأنّه فَصّلَ الدواعى الخفية التى تَجْبُرُ بعض الناس على صداقة الشرير ومصاحبته، وجاء باحتمالاتٍ معقولة، هى نتيجةٌ لتجربةٍ حيّة وُضِعتْ موضع التعليل والتحليل.

أما المفارقاتُ العجيبة فى دنيا الصداقة فما أكثر ما تحدث عنهَا مَن اختارهم شكرى فى نظراته، ومنها ما سجّله (لثاكرى) حين قال[1]:

«إن المرء قد يزول حبّه أو تفْنى مودته لإنسان، فما يرى فى زوال حبه وفناء مودته خيانةً منه لذلك الإنسان ولا غدْرا به، ولا نقصًا فى نفسه، أما إذا زالتْ مودةُ إنسانٍ له فإنّه يدهشه زوالها، ويعدّ ذلك الزوالَ غدراً ونقيصةً وخيانة، حتى إنه قد ييئس من صلاح الناس والحياة، وقد يبخع نفسه بالحزن والضيق، مع أنّه كان لا يَرى فى تغيرّه للنّاس مضايقةً لهم، ولا يفطنُ إلى أنّ ذلك الخلق منه ناشئ عن الأثرة وحبّ الذات؛ إذ يبيح لنفسه ما لا يبيح للناس، ويَنْعَى عليهم ما لاينعاه على نفسه».

وقد ألمّ بخاطرة موجزة عن تعارفِ أكثر الناس على أنّ من الحق أن يَغْتَاب الصديق الصديق، ثم هما يتقابلان فيتصافحان ويتعاشران ويتزاملان بطلاقة وابتسام، فامتد شكرى بهذه الخاطرة وأضَافَ إليها: أنّ من يُحاول أن يمنع هذا الاغتيابَ الشاذ يلاقى المقت والغدر، وكأنه يريد أن يحرم المتغابَ من حقٍّ مشروع مفروض، وهو حقّ الاغتياب الذى لا يمكن التنازل عنه حتى لا يحرم قائله من خسارة فادحة، وفى قولِ شكرى تهكمٌ ساخر، ولكنّه يحمل من المرارة الأليمة ماتلتاعُ له كرام النفوس.

الحسد ـ قاتل الله الحسد ـ كم اصطلى شكرى بناره؛ لقد ظَهر نبوغه صبيا حين بدأ ينشرُ قصائده فى الرابعة عشرة من عمره بالجرائد الذائعة، ثم جَمعَ

(١) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٥٠، ص ١٧٠.

ديوانه الأول قَبلَ أن يبلَغ العشرين، فاسترعىَ الأنظار بنزعتِه التجديدية، وقالَ عنه حافظ إبراهيم من أبيات:

لقد بايَعتُ قبلَ الناس شكرى وزكيتُ الشهادةَ باعترافى

وهذا النبوغُ مثار حسد لازم الأستاذ طيلة حياته؛ لأنّه كان قليلَ الصّبر على كتمان انفعالاته فكان يردّ الكيد بمقالات ضافية يكتبها دون توقيع، ولكنّها معروفة النسبةَ إليه لدى من يختصّه بالنقد لدى القارئ المتتبع؛ لذلكَ نجد فى ديوان شكرى جذوات مشبوبة أشعلها ما احترقَ فيه من حسد الصحاب، كما له فى هذا الديوان قصيدةٌ مستقلّة تحت عنوان (الحسد) بدأها بقولِه:

يسبحُ الأحياء فى بحر الحسدْ فاعتصمْ بالصبر فيه والجلدْ

ونظر أن النفس والحياة التى اختارها قد حفلتْ بأفانين كثيرة، تصفُ الحسدَ وتفسّرُ دواعيه، وتَنْقلُ عن هؤلاء الكبار نَظَراتهم الصادقة نحو هذا الداء الخطير شارحةً بعض أسبابه، ومِنْ هذه النظرات ما قال الفيلسوف الإنجليزى (بيكون)[1].

«فى النفوسِ صفةُ لُؤْمٍ ذائعة، وهى أنّ كلّ من لم يستطعْ إصلاح حاله، يُحاول إفساد حالِ غيره. ومِن أجل ذلك كان ذوو العاهات والخصيان والشيوخ مِنْ أشدّ الناس حَسدًا إلا إذا صادَفَ نقصُهم نفسًا كبيرة تجعلُ نقصَها زائدًا فى شَرفها، وشفيعًا لمدحها، والحسدُ داء الأمم والدول ومضْعفها، ولكنه قد يكبحُ جماح طغيان الحكام المقربين إليهم إذا خَشُوا عاقبته، والحسد كالوباء فمَن خشىَ الوباءَ كثيرًا وذُعر منه أصابَتْه عائلتُه من الرعب، وكذلكَ من يذعره حسد الحاسد فيظهره الاستخذاء والضعفَ والذعرَ فينتهز الحاسد فرصةَ ذُعره، ويصيبه بسوء، وإذا فَشاَ الحسدُ فى أمّة أصابَ سليم الصفات وكريم الأخلاق، كما يصيب الوباء الجسم السليم فيمرضه، وفى أمثال هذه البيئة الّتى فشا فيها الحسد، يُصبح الفضل نقصا، والرأى السديد خرقا، والعمل الصادق عملاً كاذبا، وذلك فى دعْوى ذوى الحسد الذين يرونْ فى انقلابِ الأمور إخفاءً لحسدهم، وهمْ مثل

(١) المقتطف عدد فبراير سنة ١٩٤٩، ص ٩٣.

الزارع الذّى يزرعُ الشوك والحسك فى الظلامِ ـ فى أرض غيره طبعًا ـ بين الحنطة وغيرها من النبات حتى ينتشرَ الشّوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو.

أما أناتول فرانسْ الذى نعى مثل هذه الحقائق فيقول عن نفسه[1]:

«قد كنتُ فى صغرى مُدللا منعّماً على قَدر ما يستطيع أهلى من التدليل والتنعيم، ومع ذَلك فقد كنتُ أحسدُ غلامًا صغيرًا مشرّدًا، وكنتُ أراهُ من نافذة منزلى، ولكنّ أَبَوَىَّ يمنعاننى من مخالطة أبناء الشوارع، فأرى أُم ذلك الغلام تتركُه حرا قذرًا ممزق الثياب، وتذهبُ كى تكسب قوتها بأن تغسل ثياب الناس، فيخيل إلىّ أنّه كان ينظر إلىّ كما ينظر العصفور الطليق إلى قفص العصفور الحبيس» وقد علّق شكرى على هذه الخاطرة بقوله: (وهذه الفكرة تذكرنى قصّةً من قصص «ستاسى» أو «موتييه» القصصى الإنجليزى الّذى تَتبع فيها دائرة الحسد، فوجَدَ كلّ إنسان يحسد مَن هو أحسنُ حالاً منه، حتى إذا بلغ أكبر مَحسود وجده وقد سئم تكاليف الحياة يودها بحسد أحقر حاسدٍ ولو كان صُعلوكا متشرّدًا حِسبّهُ حرا طليقا غير مقيد بهذه التكاليف).

«أنّ من الغرائب أن يبقى الحسد بعد زوالِ نعمة المحسود، وهذا ما عبّر عنه لارشفولوكد حين قال[2] (كثيرًا ما بقى الحسد حتى بعد زوال النعمة المحسودة، وهو قولٌ موجَزٌ أتبعهُ شكرى بهذا التعليل «ولعلّ سبب ذلك أنّ شدة الإحساس بالحسد لا يُستطاعُ إيقافها وانتهاؤها كما يُستطاع إيقافُ المندفع فى سيْره إذا بَطلَ الدفع فيظلّ سائرًا بعده، أو لعلَّ السبب أن الحسود لا يغتفر لمن زالتْ نعمته تمتعه بالنعيم الزائل، فيريدُ أن ينتقم منه، كأنّما بانتقامه بعد زوال النعم، يستخلص تلك المتعةَ الماضية واللّذة الزائلة من لحمه ودمه، حتى تكون كأن لم تكن، حتى يندم المحسود على ابتهاجه بها، وقد يزداد الحاسدُ غيظا إذا عجز عن أن يجعل ذلك النعيم الزائل كأن لم يكن».

تعليل شكرى مِنْ أقوى ما يقال فى هذا السياق وإذا جاز لى أن أعقب على

---

(١) المقتطف ـ عدد مارس سنة ١٩٤٨، ص ١٧٢.

(٢) المقتطف ـ يناير سنة ١٩٤٨، ص ٣٧.

كلام لارشفوكولد وشكرى معًا فإنّى أقول: إنهما خلطا بين الحسد والتشفى، فالحسد ذو حسرة تدق قلب الحاسد، وهذا يكون عند بقاء النعمة، أما التشفى فلا تصحبه هذه الحسرة، بل ربما صحبته لذة تناقضها، وأنا أعرفُ أن التشفى ناتج عن الحسد القديم، ولكنه ليس إياه بحالٍ من الأحوال.

ونقف عند شوبنهور الفيلسوف الألمانى لننقل قوله[1]:

كثيرًا ما يكون تجسّس إنسانٍ على إنسان لمعرفة أسراره، سببه الحسد أو الملل والسأم، فهو قدْ يحسد، إذْ يعتقد أنّ إنسانًا نال من أطايب الحياة وملذاتها ما يعدّه المتجسّس ملذاتٍ وأطايب أكثر مما ناله هو، فيلاحقه، ويأخذ عليه نظراته وكلماته وأعماله فى خلواته وجولاته. وكثيرًا ما تكون الضجة التى يدعى فيها الأشرار نصرة الفضيلة من نوع هذا الحسد» وكلام شوبنهور دقيقٌ يحتاج إلى تفصيل وإفاضة؛ لأنّه أوجزَ مثالبَ دقيقةً قد تخفى بواعثها عن غيره، وهى مما نلمس أثره حين نرى الإباحى يلبس عباءة المتزمت ليهاجم الأطهار بدعوى الانحلال والتهتك، وهُما صفته لا صفتهم: وقد رأينْا ذلك بأعيننا، ورأينا أكثر منه حين يتصدر اللّصوص الجناة لمحاكمة الأبرياء الأطهار، وحينَ يصفق لهم المجتمع وكأنه يصدّق ما زيّفوه!! ولا أرى أن أسترسل فى اقتباساتٍ تدور حول هذا الداء البغيض، ففيما قدمت ما يشير إلى خَطَره العارم، وإنْ كان من النفع المؤكّد أن أشير إلى جناية الآباء والمعلمين فى خلق هذا الشعور الكريم فى نفوس الأبناء حينَ يدفعونهم إلى منافسةٍ غاضبة عبرّ عنها الفيلسوف الإنجليزى بيكون حيث قال[1]:

«يشترك الآباء والمعلمون والحكام وأمثال هؤلاء فى تنمية روح المنافسة، فينمو التحاسد والتباغض فى نفوس الأطفال الصغار من حيثُ لايشعرون عاقبة هذه المنافسة العاجلة، ولا يفطنون إلى ما يغرسونه فى النفوس البشرية من عواقب تبقى مدى الأجيال، ضررها فى الحياة كبير. وهو غير مقصور على عهد

(١) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٧م، ص ١٩١.
(٢) المقتطف ـ فبراير سنة ١٩٤٩ ص ٩٢.

الطفولة، وهم يلجئون إلى هذه الخطّة لأنهّا فى نظرهم أسهل طريقة للحصول على ما يريدون أن يكون عليه هؤلاء الصغار».

ولعلّ المربين فى هذه الأيام يعرفون أن التشجيع لا يكون بإثارة التنافس، فكم رأينا طلابًا يتخاصمون بسبب التفوق الدراسى، ولم يلجوا هذا المولج إلا بفعل أولياء الأمور الذين لا يزالون يقولون للطفل الصغير؛ انظر إلى فلان وفلان وفلان، فهم أحسن منك، قد يكون هؤلاء من أقربائه الأدنيْن، فيخلقون شعور التحاسد بين أفراد الأسرة الواحدة، وهى فى حاجة إلى التوافق والانسجام، وما هكذا التربية!

وندع شعور الحسد إلى شعور الخوف؛ لنرى ضروبًا من التحليل الدقيق لهذا الشعور الغريزى ونعرف مثيلها فى كُتب علم النفس ذات الطابع الأكاديمى، وإذا شاءَ القارئ مثالاً لما أعنيه، فإنى أحيله على ما نقله شكرى عن الكاتب الفرنسى (ميشيل مونتانى) حين بسط القول فى تحليل الخوف، وتفسير أسبابه، فكان مما قال[1]:

«فى بعض الأحايين يدفع الخوف الإنسان إلى الانتحار خوفًا من الأمر الذى يتوقع ضرره، إنْ كان هذا الضرر أهونَ من الموت، وقد ينتحرُ المرء خوفا من الموت فى بعض أشكاله، وأنا لا أخاف من شىء قدر خوفى من الخوف، فإن له عَدْوى وأخذةً وإلحاحًا، إذ قد يخاف المرء حتى ما هو عونٌ له على الخوف ومنجاة منه، وإذا لم يدفعْ به الخوف إلى التهلكة فقد يدفع به إلى الجنون، وإلى الإقدام على ما يخشى ويخاف، وقد يَسرى الخوف فى أهل المدينة الواحدة، فيقاتل بعضهم بعضا، وكل يظن أنه يقاتل العدو المخوف الذى بغتهم، وخوف المرء من الألم قد يكون أشدّ من الألم، وقد تسرى عدوى الخوف فى الجيشين المتقاتلين فيفر كل منهما من الآخر كما حدث فى بعض وقائع التاريخ».

يقول شكرى[2] بعد أن بسط هذه الآراء: «إنّه يتذكر بهذه المناسبة قصّةً لأناتول فرانس عن رجل من أهل المدينة ذهبَ إلى الريف ونزلَ فى نُزُلٍ صغير،

(١) المتقطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٨، ص ١٧٨.
(٢) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٨، ص ١٧٨.

ولأمرٍ ما ذاعَ بينْ الريفيين أنه فوْضوىّ جاء من المدينة كى ينسفهم بالقنابل، فصدقوا هذه الشائعة، وتسلّلوا إليه وهم يرتعدون كى يقبضوا عليه مباغتةً، قبلَ أن ينسفهم بالقنابل، وكانوا يرتعدون كلما سمعوا صوتًا من حجرته، والمسكين يرتعد هو الآخر إذ حَسب أنهّم أشرار جاءوا ليقتلوه فسرى الرعب إلى نفسه، وجعل يرتعد من الخوف، وعندما فتحوُا عليه بابَ الحجرة وجدوه ميّتًا، أماّ الذى يستغرب ذكره، فهو ما قاله أناتول فرانس عما سماه «لذة الخوف» حيث حكَى على لسان البطلة بلقيس قولها[1]:

«إن سكرة الفزع تسرى فى أوصال جسمى ليلاً؛ لأن للخوف والفزع لذةً فى بعض النفوس» وأنا أرى أنّ هذه اللّذة موهومة غير موجودة، ولكنّ شكرى يؤيّد وجودها بما حكاه عن الرحّالة (لفنسجتون) إذ اعترَضَه أسدٌ فأوْقعه على الأرض، ووضَع قدمه عليه وكاد يفْترسه، لولا أن بعض أعوانه أنقذه بطلق نارى أصابَ الأسد فقتله فورا، وقد قالَ الرحالة الكبير بصدد ذلك: إنى كنت حينئذ أشعر بذهول لذيذٍ من الخوف، وهى لذةٌ تخفف فى كثيرين الأحيان بعضَ الآلام والمصائب.

هذا وقد لاحظَ لارشفوكولد[2] أن الأحاسيس تولّد أضدادها، فالجبان قد يشجع من الخوف، فيقبل مندفعًا بدل أن يفرّ إذا أحست نفسه أنّ فى الفرار ضررًا أشد، فالخوف قد سبّب الثبات أيضًا، والثبات من مظاهر الشجاعة».

وهذا قولٌ يجد المعارض؛ لأنّ الخوف هنا استسلامٌ لا شجاعة، وصاحبه لايجد القدرة على المقاومة حين يواجه الموقف المتأزّم، ولعلّ أبا تمام قد كانَ أقربَ إلى الصواب حينَ قال عَنْ عبد الصمد بْن المعذل وقد هجاه:

أقدمتَ ـ ويحك ـ من هجوى على خطر كالعَيْر يُقدمُ من خوف على الأسدِ

هذا غَيْضٌ من فيض يصور اضطرام العواطف، وتناقضها واختلافَ منازعها فى النفس الإنسانية، وقد أحسنَ شكرى حيَن قدم للقارئ العربى هذه المختارات

---

(١) المقتطف ـ أبريل سنة ١٩٤٨، ص ٢٥٠.

(٢) المقتطف ـ يناير سنة ١٩٤٨، ص ٣٩.

الصادقة ففتحت عينَه على آفاق رحيبة المدى متعددّة الدروب والأنحاء، ولا أجد أصدقَ من قول ليوباردى الّذى أدهشه تَناقض الأحاسيس واختلاف الأهواء إلى حدّ الغرابة المستعصية فقال[1]:

«إنّ مَن عاشر الناس، واشتركَ فى حوادث حياتهم يرى فيهَا مَا لوْ كتبهُ قصّةً لعدّه القارئ مبالغةً من نسج الخيال الجامح، وأبَى أن يصدق أنه مِن واقع الحياة؛ ولذلك قيل: إن الحياةَ قد تكون أغربَ من الخيال».

لقد أطال شكرى الوقوفَ أمام الحياة، مفكّرا ومتأملاً، وقد جرَّب وعانى وقَرأ ودَرَسَ ونظَم ونَثرَ وبَحث، ثم لم يجدْ غير الحيرة الحائرة التى عبّر عنها فى قوله:

عبء لغزِ الحياة يا قلبُ ما أفدَ ح عبئًا يُحثَى عليكَ وثقلا
كلما رُمتَ بالمجاهل خبرًا زادكَ العيش بالمعالم جهلا
سِرُّها أنكَ السعيدُ إذا لمْ تدرِ أنْ لا سرا لديها فيُجلَى.

وقد ختم شكرى أحاديثه عن أعلام الغرب بمقال عن عبد الله بن المقفع الكاتب الذائع الصيت فى الأدب العربى، ولا أدرى لماذا اقتصر عليه وحده، وكان فى وسعه أن يفرد بحوثًا ضافية فى نظراته عن النفس والحياة لأعلام كبار مثل الجاحظ وابن حزم وابن خلدون وابن مسكويه وأبى حامد الغزالى والماوردى والطرشوشى وأبى حيان التوحيدى وغيرهم، وقد عقد موازنة سريعة فى مقاله عن ابن المقفع تدور حول الكاتبيْن الكبيريْن ابن المقفع والجاحظ، كما ذكر اسماء بعض مَن أشرتُ إليهم من كتاّب العربية، مماّ يرجح أنه كان ينوى أن يخصهم بالحديث لولا ما عاقه من مَرض بدتْ أعراضه قبل أن يستفحل، ومثل شكرى إذا تحدّث عن كتاّب العربيّة يأتى بالطريف الجديد مماّ لا تكاد تعثر عليه عند الكثيرين، وقد ظلم ابن المقفع ظلمًا فادحًا حين قرنه فى سلوكه الإنسانى بباكون الإنجليزى بدعوَى أن كلاَ الأديبين يقول ما لا يفعل، ولا يستطيع أبلغ البلغاء عارضةً ودفاعًا أن يردّ عن باكون ما وُصِمَ به من مثالب فادحة! أما ابن المقفع فقد أخذ عليه الأستاذ شكرى أنه تحدثَ عن المداراة الواجبة على من يصحب السلطان من

(١) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٧، ص ١٩١.

حاشية تخاف شرّه وترقب خيره، ولكنه لم يُدار حين تعّرض لما يُغضب المنصور وهو حاكم باطش لايرحم أحدًا من خصومه وإن كانوا من ذوى قرباه فكيف بالغرباء! ولايجهل الأستاذ شكرى أن سيرة ابن المقفع تُقدّم أعظم مظاهر الوفاء للأصدقاء فى مواقف كثيرة، منها موقفه مع عبد الحميد الكاتب حين اختفَى فى منزله، ثم كُشف أمره، وجاءه الطلب، وحين سأل الشرطى الرجلين: أيّكما عبد الحميد؟ جعل ابن المقفع يقول أنا؟ وعبد الحميد يقول أنا؛ مضحيًا بنفسه فى سبيل صديق لجأ إلى منزله ساعةَ العسرة فوجبَ أن يفتديه، هذا الشعورُ الإنسانى الذى دفعه إلى افتداء عبد الحميد الكاتب هو نفسه الشعور الإنسانى الذى دَفعه إلى أن يؤكد المواثيق الغليظة التى أغضبت المنصور، وهو إلى أن يُمدح أقرب وأولى من أن يُنْقَدَ، أمّا ماكتبه الوراقون عن تهكمه بعامل المنصور فهو ما اعتدْنا أن نراه ملصقًا بكل متهم غضب عليه الحاكم، والأستاذ شكرى يعلم جيدًا صدق من قال:

خلق الناس للقوىّ المزايا وتجنوا على الضعيف الذنوبا..

والحديث فى هذا المنحى يتشعب ويستفيض فلأوجز؛ وفى النفس ما فيها من ألم وحسرة على أناسٍ أطهار عرفنا شَرَفَهم معرفة الملابسة والمخالطة، ثم خالفُوا ذوى السيطرة مخالفة الرأى والفكر، فحيكت لهم التّهم، واخْتُرِعَتْ الأراجيف، وغدا صديق الأمس عدو اليوم؛ جريًا وراء برق خُلَّبٍ لم ينتفعْ بضيائه غير أمدٍ محدود.

ولشكرى ـ كعادته ـ تعليقاتٌ صائبة على ما اختاره من أقوال ابن المقفع، فإذا قال ـ مثلا ـ الأديب العربى الكبير «لايوقعنك بلاء خلصتَ منه فى آخر لعلّك لاتخلص منه» قال شكرى: وقد يخلصُ الناسُ من البلاء بوسائل توقعهم في بلاءٍ آخر، ويوهمون أنفسهم أنّهم ربّما وجدوا خلاصًا سهلاً من هذا البلاء الآخر متى شاءوا بعد اتخاذهم وسيلة للخلاص من البلاء الأول، وأقرب مثل لذلك الكاذب الذى يخلص من بلاء كذْبة بكذبة موبقة وادعاءٍ يوقعانه فى مؤاخذة

أشد، أو مثل الذى يتجنى على آخر، ثم يحاول أن يخلص من عاقبة تجنيه بجنابة أخرى، وقَدْ قالَ ابن المقفع «إن أمورًا لاَ تصلح إلاّ بقرائنها، لاينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عقل، ولا شدة البطش بغير شدة القلب، ولا الجمال بغير حلاوة، ولا الحبيب بغير أدب، ولا السرور بغير أمن، ولا الغنى بغير الجود، ولا المروءة بغير تواضع، ولا اليسر بغير كفاية، ولا الاجتهاد بغير توفيق»، فالحق الأستاذ شكرى بهذا القول الصائب قوله المفسّر الشارح مع إيجازه الدقيق: «وإلاّ أدَّى العقل إلى الفساد، والحفظ إلى الخطأ، والبطش إلى الانكشاف والانخذال، وكان الجمال سمجًا، وكان ما تحت الحسب دناءة وشراسة ووراء السرور هَما وقلقًا، وكان الغنى بطرًا ولؤمًا، والمروءة منا، واليسر عسراً لايغنى، والاجتهاد عناء وخيبة.

وقد آن لى أن أضع القلم لأترك للقارئ متعتَه الهانئة بقراءة ما يلى من الصفحات، وسيجد ما يمتع ويقنع، فيحظى بخير أكيد.

د. محمد رجب البيومى

الأستاذ عبد الرحمن شكرى

بقلم الدكتور / محمد رجب البيومى

عبد الرحمن شكرى أحد زعماء الشعر العربى فى عصره، وهو أولُ ثلاثة انتقلوا بالمنحى الشعرى من ضرب إلى ضَرْب، حيث عَملوا على تأصيل قواعدَ تجديدية تتصل بالوحدة العضوية، والتجربة الشعرية، والتحليل العميق للنفس الإنسانية، وتنوع القافية تنوعًا لا تشذّ به الموسيقا الخارجية التى تتطلبها الأذن السّامعة، ولكنّ ظروفًا فوق إرادته، جعلتْه يعتزلُ الناس مدة طويلة فى كهولته، ثم أجبره المرض على الاعتزال القهرى فى شيخوخته، وكنتُ فى الخمسينيات أعرفُ أنه يقيم بالإسكندرية، وأحسُّ رغبةً حارّة فى لقائه، والتمتع بتوجيهه، وقد أخبرتُ تلميذه ومريده الوفى الأستاذ نقولا يوسف برغبتى فى هذه المقابلة، والأستاذ نقولا رقيق الحسّ، نبيل الشعور، فلم يشأ أن يقولَ: إن ظروفه الشخصية والمنزلية لا تتيحُ اللقاء على وجه سريع، بل قال إنه سيرعى إنْجاز هذه المسألة متى سمحت الأحوال، ودعوت الله أن تسمح.

وفى سنة ١٩٥٧ كتبَ إلىّ الأستاذ نقولا يقول؛ إنه اتّفق مع الأستاذ أسعد حُسنى رئيس تحرير مجلة العالم العربى أن يُصور عددًا ممتازًا من المجلّة خاصا بأدب الأستاذ شكرى، وريادته الشعرية، وقد دَعَا صفوة من تلاميذه إلى المشاركة فى تحرير هذا العدد؛ لذلكَ يرجو أن أسْهِمَ بكلمةٍ شافية تتفق وموضع المناسبة الكريمة؛ لأنّ العددَ سينشر بمناسبة بلوغ الشاعر الكبير سنّ السبعين، ولأمر أراده الله لم يصل الخطاب فى حينه، بل توجّهَ إلى مدرسة بالمنصورة غير التى أقومُ

بالتدريس بها، وحمله بعض الزملاء فى جيبْه، ثم إلى منزله حتّى يلقانى مصادفةً، ولم يتيسر اللقاء إلاّ بعد صدور العدد، فأسفتُ أسفًا شديدًا لضياع هذه السانحة، وكتبتُ للأستاذ نقولا أعلن له حقيقة ماكان، فردّ مسامحًا، وقالَ إن الفرصة لاتزال مهيأةً، فصاحب مجلة العالم العربى يرحّب بكل مقال يبحثُ فى آثار عبد الرحمن شكرى، وقد أنبأه أن العدد الخاص به لاقَى رواجًا غير منتظر، فلم يرجع منْه شئ إلى مخزن المجلّة، وأن الأستاذ شكرى كان سعيدًا بهذا الرواج سعادة تامة.

المقال الأوّل

وقد سارعتُ فكتبت مقالاً حول نظرات شكرى فى الأدب العربى؛ لأنّ الشاعر الكبير كانَ قد نشر بمجلتى الرسالة والمقتطف عدّة مقالات عن الشعراء الكبار فى العصْر العباسى من أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى والشريف والمتنبى ومهيار وأبى العلاء وأبى نواس أتى فيها بالجديد الطريف، وكان كلّ بحث خاص يقومُ مقام مؤلَّفٍ مستقل فى كتاب منفرد؛ لأن نظرات الناقد الحصيف كانتْ من الطرافة وصِدق الاستشفاف، ودقّة النظرة بحيثُ فَاجأت القْراء بمالايعلمون عن شعراء كبارٍ كثر الحديث عنهم كثرةً تفوق الحصر، وكُتِبتَ عنهم الأجزاء المتعددة شرقًا وغربًا حافلةً بما راق وشاق، ولكن نظرات شكرى الصائبة أضافت الجديد، ثم أرسلتُ المقال إلى الأستاذ أسعد حسنى فبادَر بنشره، وأعلمت الأستاَذ نقولا يوسف بما كان، فكتب إلىّ على عجل يقول: إن ماكتبتَه صادف ارتياح الرجل الكبير، وإنه قرأه مسرورًا كل السرور، وذكَر أنّ الأقلام تتناوله شاعرًا لاناقدًا، وأن هذا المقال قد ذكّر الناس به ناقدًا ذاجدّ واجتهاد، كما أنه وضع سُطورًا تحت أفكار يخالفنى فيها، ولم يشأ الأستاذ نقولا أن يسأله عن وجه المخالفة، ولكنَّ سُرور شكرى بالمقال أعَاد إليه رًجاءً فى أبناء الجيل الجديد؛ إذ عرَف أنهم لم ينسوه شاعرًا وناقدًا.

المقال الثانى

قرأتُ خطاب الأستاذ نقولا فصممت على أن أعيد الكرة، متحدثًا عن بعض مقالات الشاعر النقدية، مادامَ الحديث عن نتاجه الأدبى المنشور قدْ صادف

obeikandi.com

ارتياحه، وكنتُ أعرف أنّه خاض معركة نقدية تحت عنوان (بين القديم والجديد) بمجلة الرسالة استغرقتْ عدّة أشهر متتالية؛ لأن الأستاذ الكبير محمد أحمد الغمراوى كان قد نشر عدّةَ مقالات عن القديم والجديد فى الأدب العصرى، ذهب فيها إلى أنّ المجدّدين من الشعراء والكتاب يحاربونَ القديم انتصارًا للتحلّل والمروق، لارغبةً فى التجديد، ولما كان الأستاذ شكرى من زعماء التجديد الأدبىّ المعاصر، فقد رأىَ أن يُعارض ما اتّجه إليه الأستاذ الغمراوى، فنشرَ عدّة مقالات لم تكنْ ممهورةً باسمه، ولكنّ الزيات قال إنها بقلم (أحد أساطين الأدب الحديث) وعَرَفَ النابهون من القراء أنّ شكرى صاحبُ هذه المقالات، لأن أسلوبَه مشتهر ذائع، وطريقتهَ التحليلية لا تخفى على مطلع مثابر، وكانَ من رأى شكرى أنّ التحلّل يوجد فى الأدب القديم كما يوجد من الأدب المعاصر، وأن التصوّنَ كذلك يوجد فى الأدبيْن، وليس المجون فى الأدب المعاصر وليدَ التأثر بالأدب الأوربى؛ لأنّه وُجد فى الأدب العربى جاهليا وإسلاميا، وطبائعُ النفس البشرية هى هى فى كل زمان ومكان، قرأتُ هذه المقالات حين صدورها، وَوَجّهتْنى توجيها صحيحًا إلى حقائق أدبيّة كنت أجهلها، فكتبتُ مقالاً تحت عنوان (شكرى بين القديم والجديد) وأرسلته إلى مجلة العالم العربى، فنُشر دون إبطاء، وحملَه الأستاذ نقولا إلى الشاعر الكبير، فبدأ بمراسلتى شاكرًا، وقد حزنت كثيرًا حين جاءنى خطُّه المريض مُبعثرًا فى الصحيفة إذ كان يعانى من الشلل، ومعَ ذلك أصر على كتابة الخطاب إصرارًا كلّفهَ كثيرًا من الجهد والوقت؛ إذ لايستطيع أن يكتبَ الكلمة الواحدة ويدُه ترتجف دون مشقة أليمة، ولا أكتُم القراء أنّى تأثرت حتى سقط الدمع من عينى!! وَرَددت عليه ردّا مستفيضا حافلا أخبرُه بتقدير الجميع لأدبه وريادته، وأنّ اعتزاله المتكرر، لم يُنس الناس جهادَه الظافر فى اقامةِ الصرح الأدبى الحديث، وأن التاريخ لاينسى أقدار النابغين.

خطاب تال

وبعد عدة أسابيع، وصلنى خطاب تال من الشاعر الكبير يعلن أنه قد ارتاح لما كتبت فى خطابى السالف، ويطلب أن أبحث له فى المنصورة عن دواء لايُوجد بصيدليات الإسكندرية، وهو ضرورىّ بالنسبة إليه، وأرفق ثمن الدواء بالخطاب،

وقد بادرتُ أبحث عما طلب، فلم أجدْه بالمنصورة، وعز علّى ألا أكونَ محققاً لرجائه، فبادرتُ إلى صيدليات الأقاليم المجاورة باحثاً مثابراً، حتى عثرتُ عليه فى إحدى صيدليات مدينة (بلقاس) فأحضرتُ كميّة كبيرةً منه، حذرًا من نفادها مع احتياج الشاعر إليها، ثم سافرتُ إلى الإسكندرية متجهًا إلى منزل صديقى الأستاذ نقولا يوسف، وأريتُه ما أحمل من الدواء، ففرح كثيرًا، وقال إنّ الشاعر سيُسر بلقائك؛ لأنه لاينقطع عن ذكرك، وقد حان موعد رؤيته، فهيا، وسعدتُ كثيرًا بزيارة الرجل الكبير، ولكنّى كنت أتقطّع صامتًا؛ لما لمسته من وطأة المرض الذى جَعله شبحاً لاإنسانًا، وحاولتُ أن أُسرع فى الذهاب مخافة أن يظهر على وجهى مايدل على ألمى المبرّح فأزيدَ الرجل ألمًا، فتعللت بانتظار أحد الأقرباء لى وفق موعد قد حان، وخرجت مع صديقى وأنا لا أملك نفسى من الحزن.

المقال الثالث

وإيمانًا بما قاله صديقى نقولا من ارتياح الشاعر لما أكتب، حاولتُ أن أسّره بمقال جديد، إذ قرأت دراسةً جيدة عنه فى كتابٍ عن الأدب المعاصر للدكتور شوقى ضيف، ذهبَ فيه إلى أن نزعة التشاؤم تغلبت على شعر شكرى، وعلّلَ هذه النزعة لدى شعراء التجديد بآراء استمدّها من استنتاجه الخاص، ومع تقديرى الكبير للدكتور شوقى فقد رأيتُ أن أخالفه فى حكمه بغلبة التشاؤم على شعر الرجل؛ لأنّ نتاجه الأدبى يجمع التفاؤل إلى التشاؤم، والنفسُ الإنسانية لاتستقرّ على حالة واحدة، فبينما يسر الإنسان فى الصباح إذ يدهمه فى المساء ما يحزنه، فيقول الشعر فيما يسرّ ويسىء معًا، ثم استشهدت بقصائد كثيره تنحو منحى التفاؤل جوار ما استشهد به الدكتور شوقى ضيف من قصائده التى تنحو منحى التشاؤم، وكتبتُ مقالاً تحت عنوان «شكرى بين التفاؤل والتشاؤم» بسط وجهة نظرى بما أملك من الدليل، وأرسلتُ به إلى الأستاذ شكرى بعد نشره، فردّ سريعًا يطلب كتاب الدكتور شوقى، وكان أخى الأستاذ سعيد الشرباصى متجهًا إلى الإسكندرية، فبعثت به معه، وقابل الأستاذ فرحّب به ترحيباً كبيرًا، ثم رأيتُ الكتاب يجىء إلىّ بالبريد المسجل بعد أن قرأه الشاعر، وفى طيه رسالةٌ صغيرة يقول فيها: إن الدكتور شوقى مع تسجيله نزعة التشاؤم لدىّ، لم ينكر علىّ

إيمانى بالمستقبل، وقد استمرت المراسلاتُ بينى وبين الشاعر الكبير، يكتبها بقلمه الأشل موجزة مركزة، فأفرحُ بهَا كثيراً كثيراً، وقد كتبتُ إليه قائلاً:

إنّى لا أريد ردا، فأنا أعلمُ ظروفه الصحيّة، وكانَ مع ذلك يُسرع فى الرد المبادر، ولاسبيل إلى الامتناع عن مراسلته؛ لأنه يطلبها، ويحثّنى الأستاذ نقولا عليها، وكنتُ عرضت عليه أن أقوم بطبع بعض آثاره إذا استطعت فأرسل إلىّ تفويضًا كتابيًا بذلك.

ديوان شكرى

انتقل شكرى إلى رحمة ربه، وتحدثت الصحف اليومية والأسبوعية عن مأساة اعتزاله، وإهمال القائمين على الثقافة لأمَره، ودَعت إلى إحياء آثاره الأدبيّة التى طبعت منذ أكثر من ربع قرن، ولم يعرفْ عنها الجيل الحاضر شيئا، ولكنَّ هذه الدعوة المخلصة ذهبت هباء دون استجابة، وهنا نهضَ أحد الموسرين من تلاميذ عبد الرحمن شكرى حين كان أستاذًا بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية، وهو الأستاذ عبد العزيز مخيُون، فصمّم على نشر ديوان شكرى إحياءً لذكراه، واتصل بالأستاذ نقولا يوسف لتحقيق هذا المأرب، وسارعَ نقولا بالاتصال بى لأن معى تفويضًا من الشاعر بطبع ما أريد من مؤلفاته، وهذا ما يسهلُ نشر الديوان دون صعوبات قانونيّة، وقد حضر الأستاذ نقولاَ لزيارتى بالمنصورة، واتفق معى على أن يقوم هو بجمع أجزاء الدواوين المتفرقة، وهى جميعُها لديه، تاركًا لى أن أقوم بجمع ماتفرق فى المجلاّت الأدبيّة من شعر لم يُنشر فى أجزاء الديوان، وهى مهمةٌ من الصعوبة بمكان؛ لأنى كنت أقيم بالمنصورة حينئذ، والدوريات الأدبية بالقاهرة، ولاسبيل إلى الذهاب للعاصمة إلا يوم الجمعة نظرًا لعملى الرسمى، ولم أشأ أن أنكل عن عمل أدبى أعدّه دَيْناً فى عنقى للشاعر الكبير، فصممت على السفر المتواصل حتى جمعت ما أقدرنى الله عليه، وقدّمتُه للأستاذ نقولا، فطلب منى مقدمة للديوان حدّد حيّزها المتواضع، على أن يكتب هو مقدمةً تشمل حياة الشاعر ومايعرفه عن اتصالاته وأخباره، فجاءت مقدمته ضافية واسعة، وعبت عليه أن حددَّ لى مساحةً متواضعة بحيث تضاءلت كلمتى جوار كلمته؛ ولكنّ هذا ماكان، ثم صدر الديوان وفى مقدمته إشارةٌ إلى ماقمت

بجمعه من القصائد المتفرقة، ومن الاعتراف بالجميل لأصحابه أن أذكرَ أن أخى الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود قد استدركَ علىّ عدة قصائد جمعها فى كتاب خاص، كما استدركَ صديقى الأستاذ المحقق محمد محمود حمدان قصائد أخرى لازال يحاول جمعها، وهما مشكوران؛ إذْ أنّ ظروفى الضيقة لم تسمح بأكثر مما قدمت، وهو جهد المقل كما يقال فى المثل العربى، وقد ظهر الديوان رائعًا فخمًا، مطبوعًا على ورق مصقول، ذا حجم لافت للنظر، وبذلك تهيأ للدارسين أن يقولوا مايشاءون فى تحليل روائع هذا الشاعر الكبير.

لقاء العقاد

شاء الأستاذ عبد العزيز مخيون أن يُهدى للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد عدّة نسخ من ديوان شكرى؛ لأنّه زميله فى النضال الأدبى، وقد كَتَبَ الأستاذ العقاد عند رحيل صديقه عدة مقالات قوية عن أثره الرائد فى التجديد الأدبى نشَرها بالهلال والشهر ويوميات الأخبار، كما رثاه بقصيدةٍ حارة بالأخبار فور رحيله قال فى مطلعها:

بعد إبراهيم شكرى اليوم أودى قرب الرحل، لقد قارب جدّا

وإبراهيم هو عبد القادر المازنى ثالث الرفقة، وقد أسهُموا معًا فى تصحيح كثير من الآراء المخطئة فى حقل الأدب، وعُرفوا فى النقد المعاصر بأنهم أصحاب مدرسة الديوان، ولتفصيل ذلك مجال آخر، اتسع به الحديث، وتعددت اتجاهاته ومراميه.

أجلْ، شاء الأستاذ مخيون أن يُهدى الديوان للأستاذ العقاد، فرأى أن يصحبنى مع الأستاذ نقولا لزيارة الشاعر الكبير فى ندوة الجمعة، وفؤجئ العقاد بظهور الديوان فى سمته الرائع، فشكرَ الأستاذ مخيون على قيامه بطبع هذا الأثر النفيس، وعدَّ ذلك مكرمةً نادرة، وخاضَ فى حديث شكرى ساردًا أعذب الذكريات عنه، ومشيرًا إلى ماجدّ من خلاف بينه وبين المازنى لم يلبثْ أن انقشع؛ لأنّ المازنى قد ترضّى صاحبه، وعاد الود كما كان، لاكما يزعم من يحاولون تأريث العداء ظالمين..

وَخَرجَنْا من ندوة العقاد سعداء بلقائه، ثم وزّع الأستاذ مخيون عشرات من نسخ الديوان على من يعرفهم من كبار الأدباء، فكثر الحديث عن شكرى، وتبوأ بديوانه الحافل مكانه الجهير..

مع الأستاذ الجهنى

الأستاذ عبد الحكيم الجهنى كاتب إسكندرى ظلّ يحرر المقال السياسى بجريدة (البصير) بالإسكندرية قرابة نصف قرن، وكانت مقالاته الرصينة موضع اقتباس فى الجرائد اليومية المشتهرة، وكان صديقا للشاعر الكبير عبد الرحمن شكرى يَعُدُّ نفسه تلميذًا له فى المنهج الشعرى، وقد كنا نتحادث عن شكرى بعد رحيله، فتكلم عنه بإشباع، وكان مما قال: إن الأستاذ شكرى قد ساعد على ابتعاد تلاميذه عنه بقسوة نقده، فقد كان يزورنا فى دار البصير فيجد طائفة من شعراء الشباب أصبحوا فيما بعد من ذوى الشهرة المستفيضة، وقد أخذوا يعرضون قصائدهم عليه، فكان يقرأ القصيدة بيتًا بيتًا، ويلفت إلى أخطاء فى الفكرة أو الصورة أو التعبير ويمسك عصا الأستاذية عن جدارة، فينصرف الشاعر المنقود غير مستريح للهجة شكرى، مع أن شكرى حريص على النفع الأدبى لمن ينشد توجيهًا، ومن العجيب أن الشاعر الكبير خليل مطران كان يزور البصير ومعه الأستاذ خليل شيبوب. فيعرض عليه الشباب آثارهم الشعرية فيهش ويبشّ، ويطيل المدح، فإذا لجأ إلى النقد ساقَه فى ثوب حريرى لايخدش سامعه، فهو إلى الإيماء السريع أقرب منه إلى التصريح الواضح، فيحظى بإعجاب الناشئة، وينشرون عنه أحاديث الريادة لسماحته ولطف المحضر، وكنت أقارن بين مسلك شكرى ومسلك مطران فأودّ لو خفف شكرى من غلوائه، ولكنْ هيهات، وأذكر أن الشاعر الكبير كان ناظرًا لإحدى المدارس الثانوية وبين مدرسيها شاعر مرموق تعرفه الصحافة الأدبيّة عن جدارة، فعرَضَ قصيدة له على الأستاذ شكرى، فوجد نقدًا موضوعيا ضاق به حتى أنه لم يعرض عليه شيئًا مما قال، وظل يحمل نحوه عاطفة غاضبة، ثم نشر الشاعر المدرس قصيدة بجريدة الأهرام قرأها شكرى فى مكتبه، قراءة جيدة تستحق التفريظ، فبادرَ باستدعائه، وأثنىَ على قصيدته الجديدة ثناءً مفرطاً، فتأكّد الشاعر الشاب أن الناقد موضوعى، وأنه لاينقد لذات النقد، وتحولت عاطفة السخط إلى حب وتقدير.

ثم تابع الأستاذ عبد الحكيم الجهنى يقول:

لن أنسى يومًا غصب فيه الأستاذ شكرى علىّ غضبًا شديدًا، إذ كان مما وقعت فيه بحسنِ نيّة، أن زميلاً من مراسلى الأهرام فى الثغر يتعاطى الأدب، وينشر شذرات موجزة عن أمور عامة فى الصحف، وقد جاءنى ذات يوم، وطلب منّى أن أرثيه، ليبعث بالرثاء إلى مجلة الرسالة، ثم يصدر تكذيبًا بعد ذلك، فتثير المسألة ضجة حول اسمه، وقد لبيت الطلب، ونظمت خمسة أبيات قلت فيها:

على (....) يبكى قارئوه ... فقد عَرفوا له صدق الزماع

تنسّك فى اليفاعة للأمالى ... وأخبت فى الشبيبة لليراع

فكانَ بجدِه كهلاً وشيخا ... يعيش كفاء أعمار تباع

له صُغرى عجالاتٍ وضاء ... وكَبْرَى ذات حسن وامتناع

فوا أسفى عليه وقد توارى ... وراء الغيب كالشفق المشاع

سارعَ الأديب فنشر الأبيات بالبريد الأدبى بمجلة الرسالة[1] فى خطاب بتوقيع مجهول، ولكنّه عزاَ الأبيات للأستاذ عبد اللطيف النشار، ولم ينسبها إلىّ، فتضايقت، ثم لقيت الأستاذ شكرى مصادفة فأخبرته بما كان فلم أتحمّل ثورته الهائجة علىّ، حينَ هاج: الشعر كرامة، وليس مظنة سفهٍ واحتيال، والشاعر نبىٌّ فى قومه يهديهم إلى المثل الأعلى، وما اقترفْتَه إرضاءً لصديقك يطردك من عالم الشعر، ويجعلُك نظّامًا وصوليّا، كمن يرتزق بالشعر الغث! هل هانت كرامة الوحى الأدبى إلى حد التلفيق والكذب وتشويه الحقائق!! أين العقيدة الأدبية؟ أين العقيدة الأدبية! وإزاء ثورة شكرى لم أنبس بحرف، وجعلت أقول: ليتنى ما نطقت.

---

(١) الرسالة العدد (٦٦٥) ـ ١ / ٤ / ١٩٤٦م /د. محمد رجب البيومى).

عند بحر مويس

بحر مويس نهر صغير يشق مدينة الزقازيق، وقد رآه الأستاذ شكرى لأول مرّة عندما عُيِّنَ ناظرًا لمدرسة الزقازيق الثانوية، وكان الوقت وقت العزوب! فنظم قصيدة فيما رأى، ولم أكن أعلم مناسبتها حتى حدثنى الاستاذ الجهنى عنها، فقال: إن الشاعر الكبير ذكَر له أنّه حين رأى بحر مويس عند الغروب لأول مرة، وحوله غيل من الشجر المتكاثف، ظن أنه رأى هذا المشهد من قبل، وتجسّد هذا الظن فى وهمه حتّى قرب من الحقيقة، مع أنهّ لم ير الزقازيق قبل اليوم، ثم جَعل يتساءل: هل كنا أحياء منذ آلاف القرون؟ وعبرنا هذا الطريق، كما نعبره الآن؟ إن ما أتخيله موضع ظّن جاد لدىّ، ولكنه دون دليل، ومابرح هذا الخاطر يراود الشاعر الكبير حتى جرى لسانه بهذه الأبيات:

كم خشع العابر من قبلنا ... على ضفاف النهر وقت الأصيلْ
وربما كنا الأُلَى قد مضوا ... وإن نأى الظن وعز الدليلْ
كم منظرٍ تحسب إمّا بدا ... من أخذة الفكر ووهم الذهولْ
أنك ـ والقلب خبير به ـ ... أجلْتَ قدْماً فيه لحظ المجيلْ

وهو قول يصوّر لنا كيف يتخيل الشاعر، بل كيف يتوهم، ثم يرجح ثم يقول! ولو ذَكرَ كبار الشعراء مناسبات قصائدهم لوقفنا على خواطر بعيدة أوْحت لهم بما مزج بين الواقع والخيال..

وبعد، أفيكون فى هذه الذكريات مايشفع لنشرها؟ أرجو.

* * *